من الحياة

الصـــديق الضائع

للأستاذ منصور جاب الله

كان لى صاحب ما شهدت له نديداً فيما رأيت من الصحاب . كان أكبر الناس فى عينى ، وكان رأس ما أكبره فى عينى أنى ما عرفت عنه غميزة تميل به إلى جانب الغرور ، على ما به من مزايا فاضلة ، وعلى ما كانت تفيض به جوانب نفسه من البصر بفنه والعلم القائم على أساس وطيد ، وعلى ما كان يتدافع فى شرايينه من دم الشباب النضير . وفى كل أولئك حوافز الذهاب بالنفس والتكاثر بالسطوة إلى مدى بعيد .

وكان فى عقدى أن من رأى هذا الصديق نظرة أجله ، ومن خالطه معرفة أحبه . وجدت فيه ما افتقدت فى سائر الصدقان : تواضع على علم ، وحياء فى ورع ، وسذاجة من غير تكلف ، وبساطة تنأى عن التعقيد . وكل أولئك محبب إلى النفس ، وكل أولئك شيء عزيز المنال .

ولازمت خدنى هذا ملازمة شديدة ، توثقت عناصرها على الأيام ، حتى حسب الناس أن لا فكاك لازدواجنا ، وأن أحدنا لا غناء له عن رفيقه ، وكذلك كنا لا نفترق إلا على موعد من لقاء قريب ، فى الإصباح والإمساء ، وإذ كنا متجاورين فى السكنى . لم تفرق بيننا إلا المضاجع ، وما أثقل الساعات التى تتجرم على بعادنا ، وما أطول اللحظات التى تنقضى دون لقائنا .

هنالك بين ربوع الاسكندرية الناعمة ، كنا نساحل على شاطئ البحر الجميل فى أخريات الربيع وفى ذرور الصيف ومطالع الخريف ، وكانت لنا ثم ملاعب ومرابع ، لا يرنق صفاءنا اعتكار ، ولا ينال من عشرتنا لسان ، إذ كان قوامها الإخلاص المتبادل ، وعمادها المودة المشتركة ، ومن ثم كانت أحاديثنا ومسامراتنا لا تنصرف إلا لما يتغشى الناس من أحداث ، وما يتوسعه العالم من حدثان . وكانت آراؤنا فى الحياة — على سذاجتها وسطحيتها — مطبوعة بطابع من الهدوء والبعد من الاعتساف .

وإذا كنا على سفر ، تواعدنا على اللقاء فى القطار ، ثم تجمعنا الصحبة فى المنزل ، وقد نتقاسم الغرفة الواحدة فى بعض الأحيان ، ونشارك فى الطعام والشراب ، ويقضى منى لشأنى ، كما أصحبه لقضاء ما يريد .

* * *

كانت تلك حالنا إلى أن فرقت بيننا تصاريف الزمان ، أخرجني [illegible] إلى [illegible] عمل [illegible] ، ورضيت أنا أتناوب المقام بين القاهرة والاسكندرية . بيد أننا لم نفترق إلا بالجسم فقد اتصل قلبانا وروحانا ، فكنا نتناجى بلغة الأرواح كما كنا نتنادى بلسان البريد ، ثم نتصل وننفصل والأيام لا تزيد علائقنا إلا توثقاً واتصالا .

* * *

وإذ قامت علاقتنا على الصدق والإخلاص ، كان لى أن أزجى النصح إلى صديق ، إذا تجانف لإثم أو خيل إلى أنه كذلك ، وأى الناس ترضى سجاياه كلها ، ولقد كان يتقبل منى النصح المبذول لعلمه أن مصدره الإخلاص ، وتلك حالى معه .

وفى إحدى زوراته المتباعدة لى توجهت إليه باستصلاح ما أنكرت منه ، فشهدت منه بوادر الامتعاض على بساطة المؤاخذة مع داعى الإخلاص ، وتظاهر بالقبول بل تظاهر بالرضى والاقتناع .

وكانت تلك هى المرة الأولى رأيت فيها صديق يظهر غير ما يبطن ، فلم يحاول بعد ذلك أن يلقانى ، وإن كنت سعيت إليه — علم الله — مراراً ، إذ عز على أن تهدر صداقتنا بمثل هذه السهولة ، وقد عملت فى تكوينها السنون الطوال ، ورواها الإخلاص وسقتها النزاهة . وكاتبته مراراً أبى أن يتنزل إلى الاجابة على ، فعلمت أنه يروم قطيعتى والازورار عنى ، فأمكنته مما يريد . وفى النفس موجدة حرى ، وفى القلب أسى لا يطاق .

* * *

وبالأمس كنت أسير فى بعض الطريق فلمحت على مبعدة منى رجلاً عرفته غير أنى أنكرته ، عرفت فيه شيئا وأنكرت منه